رأي القدس

المسلمون في بريطانيا: من يرهب من؟

■ تسود حالة من القلق المشوبة بالغضب اوساط الجالية الاسلامية في بريطانيا، بعد كشف السلطات الامنية البريطانية عن «خطة ارهابية» تورط فيها تسعة اشخاص، كانت تهدف الى خطف جندي بريطاني مسلم وتعذيبه ثم قطع رأسه ونشر الصور على مواقع الانترنت.

مصدر القلق هو توجيه اصابع الاتهام الى هذه الجالية مرة اخرى، باعتبارها «معمل تفريخ» لارهابيين يريدون زعزعة الاستقرار في بريطانيا، والحاق الاذى بمواطنيها.

والجالية الاسلامية محقة في غضبها، فلا تمر بضعة اشهر دون ان يتم الكشف عن خطط مماثلة، تفرد لها الصحف ونشرات الاخبار في محطات التلفزة مساحات واسعة للحديث عنها باسهاب، الامر الذي يعرض المسلمين للمزيد من المضايقات والاتهامات بالارهاب، مما يضيف متاعب جديدة اليهم الى جانب المشاكل المزمنة التي يواجهونها حاليا، وتتمثل في البطالة والسكن والطبابة، والتوقيف من قبل البوليس.

السلطات الامنية اقدمت على تصرفات اثارت الذعر في اوساط الجالية، عندما اقتحمت منازل المتهمين فجرا، وكسرت الاقفال، وروعت الاطفال واعتقلت من رأت انه متورط في المؤامرة الاخيرة.

الشيء نفسه حدث اكثر من مرة في السابق وتم الحديث عن خطط ارهابية لقتل عشرات الآلاف في محطات الانفاق، وجرى اعتقال خلية من الجزائريين في شمال لندن بتهمة انشاء معمل لانتاج غاز الرايسن القاتل، ليتبين بعد ذلك كذب كل هذه الادعاءات، وتبرئة جميع المعتقلين من التهم الموجهة اليهم، ولكن بعد ان جرى تشويه سمعة الجالية الاسلامية والحاق تهم الارهاب بها زورا وبهتانا.

لا نستطيع ان نجزم بصحة الاتهامات او عدمها الموجهة الى المعتقلين التسعة في مؤامرة خطف الجندي البريطاني المسلم المزعومة، ونفضل ان ننتظر حكم القضاء البريطاني الذي لا نشك في عدالته، ولكن من حقنا ان نطرح العديد من علامات الاستفهام حول هذه الاتهامات وتوقيتها على ضوء تصرفات الاجهزة الامنية السابقة وثقافة توظيف الارهاب بشكل مستمر كجزء من سياسة الحكومة الحالية لاخفاء فضائحها وتبرير سياستها الخارجية الفاشلة في الشرق الاوسط.

فهل من قبيل الصدفة الكشف عن هذه المؤامرة الارهابية يوم اعتقال اللورد ليفي مبعوث توني بلير رئيس الوزراء الى الشرق الاوسط، واكثر المسؤولين البريطانيين تعاطفا مع الدولة العبرية، بتهمة جمع تبرعات لحزب العمال من قبل اثرياء بريطانيين مقابل حصولهم على لقب «لورد»؟

وهل من قبيل الصدفة ايضا ان يتزامن هذا الكشف مع التحقيق مرة اخرى مع السيد بلير في اطار القضية نفسها؟

نحن نطرح هذه التساؤلات استنادا الى ما تم كشفه حول استخدام مساعدي توني بلير هذا الاسلوب لاخفاء بعض الفضائح اكثر من مرة في الماضي، في اطار ما يعرف بثقافة «Spin Doctor»، او كنس الأخبار السيئة تحت السجاد بطريقة ذكية وتحويل الانظار عنها باختلاق احداث اخرى.

فاذا كانت الاجهزة الامنية البريطانية تراقب المجموعة المستهدفة منذ ستة اشهر، وعلى اطلاع بكل تحركاتها، فلماذا اختارت هذا التوقيت بالذات لفضحها، واحداث هذه الضجة الاعلامية؟

نحن لسنا من المؤمنين او المروجين لنظرية المؤامرة، ولكن متابعتنا لسياسة هذه الحكومة واكاذيبها التي اطلقتها دائما لتضليل الرأي العام البريطاني، وابرزها اكذوبة اسلحة الدمار الشامل العراقية، وملف قدرة العراق على تجهيزه هذه الاسلحة للاستخدام في غضون 45 دقيقة تجعلنا نشكك دائما برواياتها خاصة تلك المتعلقة بالارهاب الاسلامي.

نعم هناك مجموعات متطرفة في اوساط المسلمين البريطانيين، ونعترف ان احداث السابع من تموز (يوليو) عام 2005 التي راح ضحيتها عشرات الابرياء من البريطانيين من مختلف الاديان والالوان كانت المثال الابرز على خطر هؤلاء ونزعاتهم الدموية، ولكن لا بد من التسليم ايضا بان الحكومة البريطانية تستخدم «سياسة التخويف» لارهاب البريطانيين، والمسلمين منهم بالذات، لتبرير سياساتها الخارجية التي عرضت الامن البريطاني للخطر، وجاءت بالارهاب الى قلب مدينة لندن.

أمريكا الراهنة: إمبراطورية ردّ الصاع، أم الجمهورية الإمبريالية؟

صبحي حديدي *

■ يعلّمنا التاريخ أنّ بين أشدّ خلائط السياسة خطراً، وشذوذاً وغرابة وانعدام استقرار، هذه الخلطة التالية التي تعيشها الولايات المتحدة راهناً: أنها تسعى إلى أن تكون، في آن معاً، ديمقراطية داخلية وإمبريالية خارجية. وفي توصيف طبائع هذا المزيج يكرّس شالرز جونسون ـ الأستاذ البارز في جامعة كاليفورنيا، سان دييغو، ورئيس ومؤسس «معهد أبحاث سياسة اليابان»، وأحد أذكى متابعي مخاطر صعود الإمبراطورية الأمريكية ـ كتابه الجديد «نيميسيس: الأيام الأخيرة للجمهورية الأمريكية».

وهذا العمل، الذي قد يكون التحليل الأعمق والأشجع والأشدّ قتامة لانحطاط الديمقراطية الأمريكية في ولايتي الرئيس الأمريكي جورج بوش، هو الجزء الأخير من ثلاثية بدأها جونسون سنة 2000 بكتاب «ردّ الصاع: أكلاف وعواقب الإمبراطورية الأمريكية» الذي تناول محاذير السياسات الأمريكية تجاه الصين واليابان والكوريتين (حيث أنّ شرق آسيا هو ميدان اختصاصه المهني)؛ وفي فترة التحضير لغزو العراق أصدر جونسون كتابه الثاني في السلسلة ذاتها: «ضرّاء الإمبراطورية: النزعة العسكرية، الكتمان، ونهاية الجمهورية»، وفيه استعرض مشهدية الكوارث التي حاقت بالولايات المتحدة جراء سياسات بوش.

ومن الإنصاف القول إنّ أفكار جونسون تندرج ضمن تيار عريض ناقد، من مواقع جيو ـ سياسية ونظريات جيو ـ ستراتيجية ومشارب إيديولوجية متباينة، للنزعة الإمبراطورية ـ العسكرية التي تبلورت مبدئياً في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان، وتعاظمت وتبلغ ذروة قصوى في ظلّ الإدارة الراهنة (والمرء، هنا، يفكّر بنقّاد من أمثال نوام شومسكي وبول كنيدي وجورج و. بول). لكنّ جديده، الذي يميّزه عن سواه، كثير متشعب من جانب أول، ومنغمس أكثر في تحليل العلاقة الطردية بين صعود الإمبراطورية خارجياً وتآكل الديمقراطية داخلياً، وذلك رغم انكسار الحلم الأكبر لهذه الإدارة الراهنة: الهيمنة الكونية والانفراد بموقع القوّة الأعظم والأوحد خارجياً؛ وهيمنة الحزب الجمهوري في الداخل، طيلة جيل كامل قادم على الأقلّ. النصف الخارجي من الحلم يتبخّر كلّ يوم، في العراق وأفغانستان؛ والنصف الداخلي تبخّر بالفعل، في أعقاب انتخابات تجديد الكونغرس الأخيرة.

وفي استكمال ما يسمّيه «أوديسة تحليل» الإمبراطورية الأمريكية، أجرى جونسون مجموعة أبحاث حول شبكة من 737 قاعدة عسكرية أمريكية هنا وهناك في العالم (واستناداً إلى إحصائيات وزارة الدفاع الأمريكية ذاتها)، فاتضح له التالي: مع استثناء العراق وأفغانستان (وتخيّلوا دلالة هذين الاستثنائين!) تنشر أمريكا أكثر من نصف مليون جندي أو جاسوس أو متعاقد أو تابع، في قواعد عسكرية داخل أراضي أكثر من 130 بلداً، معظمها خاضعة لأنظمة دكتاتورية لا رأي البتة لمواطنيها في إقامة تلك القواعد.

وهنا مثال شهير على سياسة نشر القواعد العسكرية طبقاً لمفهوم إمبريالي: خلال الـ 61 سنة الماضية تخندق الجيش الأمريكي في جزيرة أوكيناوا اليابانية الصغيرة، فأقام فيها 37 قاعدة، ونشر 17,000 من مشاة البحرية في الفرقة الثالثة، بحيث صارت المنشأة العسكرية الأمريكية الأضخم في شرق آسيا. ولقد ارتكب أفراد الجيش الأمريكي عشرات أعمال الاغتصاب والجريمة وتلويث البيئة وحوادث الطرق، وتسببت هذه في تظاهرات احتجاج واسعة في الجزيرة وعلى امتداد اليابان، لكنّ القاعدة ظلّت على حالها من حيث العدد والعدّة، بل حدث أنها تزايدت وتفاقمت آثارها الكارثية، التي تشكّل المادّة الوقائعية الأساسية في كتاب جونسون الثاني: «ضرّاء الإمبراطورية: النزعة العسكرية، الكتمان، ونهاية الجمهورية».

وثلاثية جونسون عُرفت باسمها المختصر «ردّ الصاع» Blowback، ليس لأنها تناسب مزاج الغطرسة العسكرية والنزوعات الثأرية لدى الحالمين بالإمبراطورية الأمريكية صانعي قراراتها فحسب، بل لأنها أيضاً مفردة شائعة لدى أوساط الاستخبارات الأمريكية، وفي قطاع العمليات السرّية تحديداً. ذلك لأنّ المفردة لا تعني الانتقام مماّ حاق بالولايات المتحدة من أذى على يد جهات معادية، أياً كانت عقائدها وتكويناتها وأصولها ووسائلها، بقدر ما تعني عمليات الثأر الخارجية السرّية المنظمة، غير القانونية وغير المشروعة والمحرّمة دولياً وحسب التشريعات الأمريكية ذاتها، والتي يتمّ إخفاؤها تماماً عن الرأي العام والجمهور.

وبالطبع، في رأس لائحة «ردّ الصاع» تندرج عمليات إسقاط الحكومات الشرعية التي يبغضها البيت الأبيض لألف سبب وسبب، وتدريب ضباط الاستخبارات من بلدان أخرى («حليفة»، «شبه حليفة»، أو حتى معادية لأمريكا في العلن واللغط فقط) على تقنيات إرهاب الدولة، وتزوير الانتخابات في البلدان التي تنذر بصعود قوى معادية للمصالح الأمريكية، أو افتعال أزمات اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية تزعزع استقرار البلدان المستهدفة، فضلاً عن تنظيم عمليات الاغتيال مباشرة أو عن طريق وسطاء عملاء... ويقول جونسون: «وحقيقة إبقاء تلك العمليات سرّية، في البدء على الأقلّ، تعني أنّ انكشاف العملية الثأرية ـ كما حدث على نحو استعراضي بعد 2001/9/11 ـ يجعل الجمهور الأمريكي عاجزاً عن وضع الأحداث في سياقاتها. وليس مفاجئاً، إذاً، أنّ الأمريكيين يدعمون أفعال الانتقام الفورية السريعة الهادفة إلى معاقبة المذنبين، الفعليين أو المزعومين. ولا تقوم برهة الانفلات الثأرية تلك إلا بتعبيد الأرض لجولة جديدة من ردّ الصاع».

وسواء شاء الأمريكيون أم أبوا، يساجل جونسون بشجاعة لافتة، فإنّ العالم خارج المحيط يراهم متورطين في، أو على الأقلّ: صامتين عن، الفظائع الرهيبة التي جرت في سجن «أبو غريب» العراقي، وفي قاعدة «باغرام» الجوية في كابول، وفي سجن غوانتانامو، فضلاً عن انتهاك المخابرات الأمريكية للقوانين الدولية وإقامة المعتقلات الطائرة والسجون السرّية. وحين شرع الرجل في كتابة الجزء الثالث من السلسلة، لم يكن لديه شكّ في أنّ الحفاظ على هذه الإمبراطورية الخارجية لا بدّ أن ينعكس داخلياً فينتقص مماّ تبقّى ـ حسب تعبيره ـ من ديمقراطية أمريكية، ولعلّه سيفضي في نهاية المطاف إلى «دكتاتورية عسكرية، ولكن ذات طابع مدني»!

ولكي لا يبدو هذا التحليل القاتم ضرباً من التهويل والمبالغة، يرسم جونسون المشهد التالي الذي لا ينطوي على أيّ تهويل أو مبالغة: ثمة خليط من جيوش هائلة منتشرة خارج البلاد، موضوعة في حالة حرب؛ واعتماد اقتصادي متزايد على المجمّعات الصناعية ـ العسكرية، وتصنيع الأسلحة خصوصاً؛ وإنفاق خرافي على القواعد العسكرية، مع تضخّم هائل غير مسبوق في ميزانية البنتاغون؛ إذا وضع المرء جانباً ذلك الانتشار السرطاني لنفوذ وصلاحيات وزارة الأمن الداخلي، والتدمير المنظم لبنية الحكم الجمهوري لصالح رئاسة إمبريالية أكثر فأكثر... ولا يتردد جونسون في إنذار أبناء جلدته: «نحن على حافة خسران ديمقراطيتنا من أجل الحفاظ على إمبراطوريتنا. وحين تسير الأمّة على هذا الدرب، فإنّ الديناميات التي تنطبق على كلّ الإمبراطوريات السالفة لا بدّ أن تنطبق علينا: العزلة، الإفراط في التوسع، توحيد العناصر المحلية والكونية المناهضة للإمبريالية، والإفلاس في الختام».

وبالطبع، هو لا يتعفف أبداً عن استخدام كلمة «النهاية»، مراراً في الواقع، وفي العناوين ذاتها أيضاً: ليس نهاية الإمبراطورية وحدها، بل نهاية الجمهورية معها، سواء بسواء. ونعرف أنّ التاريخ يضرب أمثلة على قوى عظمى لمست في ذاتها قدرة خارقة على قيادة الكون، يالهام من الله أو هبة خالصة من القدر كما سيقول قادة تلك القوى وفلاسفتها. في القرن الأول قبل الميلاد رأى شيشرون أنّ الشعب الروماني يتحمل مسؤولية رعاية الكون وفرض القانون الروماني على «الشعوب البدائية»، سواء بالإقناع أو بالإكراه، تلك المرحلة حفظها التاريخ باسم «السلام الروماني». الإمبراطورية البريطانية كانت، من جهتها، بمثابة «عبء الرجل الأبيض الذي فرضته يد التاريخ الجليلة». وخلال الحرب العالمية الأولى كتب البريطاني جورج أنوين يقول إن «حسّ الإمبراطورية ملائم لمزاج الإنكليزي، لكنّ ضميره السياسي ينفر منه. ماذا في وسعه أن يفعل؟ لا مهرب له من قبول هذا الواجب الأعلى الذي فرضه الله، وهذا الشرف الذي أسبغه القدر». تلك كانت مرحلة السلام البريطاني.

بيد أن إمبريالية الولايات المتحدة كانت منذ البدء حالة استثنائية في بواعثها وأهدافها، رغم أنها ظلّت بدورها «واجباً لا يجوز التواني عن القيام به» و«هبة من الله»! محلّ أمريكي ظريف لم يتوان عن الشكوى من هذا العبء المقدّس في تحليله لما يسميه «الإمبراطورية بالصدفة العمياء». يقول أرنولد ستيل: «على النقيض من روما، إمبراطوريتنا لم تلجأ إلى استغلال أطرافها وشعوبها. على العكس تماماً... نحن الذين استغللنا الشعوب واستنزفت مواردنا وطاقاتنا وخبراتنا»!

السلامان الروماني والبريطاني كانا، في الجوهر، سلسلة ترتيبات استهدفت حماية المصالح الرومانية والبريطانية عبر خلق نسق خاص من النظام والقانون تنتعش فيه تلك المصالح، ويجري خلاله تسخير الجهد العسكري بما يكفل حماية ذلك النسق. أمّا السلام الأمريكي فإنه يفترض مسبقاً حالة من التطابق والتوافق التامّين بين مصالح الولايات المتحدة ومصالح الإنسانية جمعاء. والحكومات أو الحركات السياسية التي تعترض على هذا التطابق الفطري إنما تضمر العداء للولايات المتحدة، ولسلامها الكوني، بالضرورة. الحرب ضد أولئك «العصاة» تصبح، تأسيساً على ذلك، مهمة مقدسة تستهدف خير البشرية والمجتمع الدولي، وحملة صليبية مديدة متجددة من أجل عالم «لائق» و«حرّ» و«ديمقراطي». هذه، دون أيّ تبديل أو تعديل، هي اللغة التي استمعنا إليها كلّما تعيّن أن تذهب أمريكا إلى الحرب!

وثمّة هنا تناقض موروث في الواقع، لأن هذا السلام الأمريكي يتّصف بأنه خير مَنْ يُرسل وأسوأ من يستقبل: لأنّ الأمريكيين يرسلون بفعالية عالية، فإن الإنسانية تكاد تتأمرك؛ ولكن لأنهم يستقبلون بشكل بالغ السوء، فقد قاوموا طويلاً محاولات أنْسَنَتهم، بمعنى تعليمهم كيفية التجاوب مع حاجات الإنسانية في ما يتبقى من العالم خارج حدود الولايات المتحدة كما يقول الباحث الكيني علي مزروعي. الأمريكيون يملكون عدداً متنوّعاً ومتشعباً من لغات الإرسال والاتصال مع العالم الخارجي، ولكن ينبغي تمييز تلك الوسائل الموضوعة بتصرفهم عن تلك التي يستخدمونها فعلياً، وعن أشكال وأغراض استخدامها.

الإنتاج هو أحد تلك اللغات، فالولايات المتحدة دخلت الحرب العالمية الثانية كدولة بين دول متكافئة ـ أو تكاد ـ في قدراتها الاقتصادية، وخرجت منها صاحبة الاقتصاد الأعظم في الكون. والكارثة التي دحرت رايخ هتلر وأمبراطورية اليابان، أقعدت الحلفاء أيضاً: إنكلترا صارت على شفير الإفلاس، ومجتمعات فرنسا وإيطاليا انقسمت على نفسها، والسوفييت انشغلوا بدفن 20 مليون قتيل. وهكذا احتلّت الولايات المتحدة موقع صيرفي العالم الأول، والمالك الوحيد لأسلحة فتاكة قادرة على صنع وصياغة السياسات الكونية، وامتلاك وسائط اتصال فعالة مثل الطاقة النووية وقوّة الإستهلاك العالية والسيولة المالية المباشرة والنفوذ الواسع متعدد الميادين.

غير أنّ جوهر المعضلة يكمن هاهنا أساساً: أن تأنس قوّة كونية في ذاتها جبروتاً فائقاً يردّ الصاع إلى الخارج، ولكن لا يكاد يجلب من الخارج إلا ما يفتّ في عضد الإمبراطورية ويسير بها إلى خراب وتآكل. وبهذا المعنى فإنّ اختيار شالرز جونسون شخصية نيميسيس، ربّة الثأر والانتقام في الأسطورة الإغريقية، عنواناً لكتابه الأخير يفيد أولاً أنّ الربّة الغاضبة تجوس أرجاء أمريكا عموماً، وتستوطن البيت الأبيض خصوصاً؛ ولكنه يشدّد، ثانياً، على جانب آخر في وظائف نيميسيس الشائعة: أنها غالباً، وإزاء أهل الغطرسة والغرور والتجبّر خصوصاً، إنما تردّ الصاع صاعين!

* كاتب وباحث سوري يقيم في باريس

كيف تتعلم اللطم والتطبير وضرب الزنجيل في ساعة؟!

هارون محمد *

■ منذ احتلال العراق في التاسع من نيسان (ابريل) 2003 وتقويض الدولة العراقية وبناها التحتية ومؤسساتها الوطنية، والبلد يرزح تحت وطأة سلسلة من الانهيارات في القيم والأخلاقيات والسلوكيات والتصرفات التي صنعها الامريكان وفق نظريتهم الجهنمية (الفوضى الخلاقة) او البناءة، كما أسماها بول وولفوتز مساعد رامسفيلد سابقاً، وهو احد قادة اليمين المتصهين وواحد من عرابي الحرب على العراق، ومعلومات الاوساط الدبلوماسية العربية في واشنطن تشير الى انه ما يزال يلعب دوراً سياسياً في إدارة بوش من خلال تعاونه مع مكتب نائب الرئيس ديك تشيني رغم ان وظيفته الحالية هي رئيس البنك الدولي.

ولعل أبرز مفردات الفوضى الخلاقة التي طبقت سياسياً وميدانياً في العراق منذ احتلاله هي السماح للتنظيمات الشيعية والكردية في بسط نفوذها القائم على الاستحواذ والهيمنة، ونشر ثقافتها المبنية على الغلو والخرافات، الأمر الذي حول العراق وخاصة في المحافظات ذات الاكثرية السكانية الكردية والشيعية الى اقطاعيات يديرها ميليشاويون وشيوخ تمرد وعصيان وملالي متخلفون يتناحرون على المكاسب الشخصية والفئوية والطائفية ويتنافسون على الامتيازات والموارد المالية والنفطية.

وإذا كانت المحافظات الكردية تشكو اساساً من نفوذ حزبي بارزاني وطالباني واستئثارهما بالسلطة واستخدامهما للقوة والاحتواء ضد الاحزاب المعارضة وخصوصاً الاسلامية، المعتدلة في نهجها وطرائق عملها، اضافة الى ان غالبية اكراد العراق هم من السنة، الامر الذي لم يتح لظهور نزعات وخلافات وصراعات طائفية في المنطقة الكردية، على عكس المحافظات العربية في منطقتي الجنوب والفرات الاوسط، التي تعاني منذ قرابة اربع سنوات من هجمة تختلط فيها الشعوبية والصفوية المعاديتان اصلاً للتشيع العربي، وتدفق مجموعات وقيادات دينية وحزبية مرتبطة بالاجهزة والمراكز الايرانية، نجحت بتشجيع قوات الاحتلال من احتلال مواقع متقدمة في العديد من الهيئات الحكومية والعسكرية والامنية والادارية، راحت تروج لاجندتها ومفاهيمها الطائفية علناً وتمارس التهديد والخطف والاغتيال ضد كل من لا يستجيب لها ويرضح لإملاءاتها وخصوصاً من الشيعه العرب، ونخبهم الفكرية والاكاديمية والاجتماعية والعشائرية والعسكرية والثقافية والفنية والرياضية، ولا تعجبوا اذا عرفتم ان اكثر من مئة وعشرين شيخاً لاكبر القبائل العربية الشيعية هربوا من العراق ويقيمون الان في الاردن والامارات وسورية ومصر، وهناك اكثر من مئتي مطرب وموسيقي وملحن شيعي عربي في الخارج بعد ان هدرت دماؤهم ومثلهم فنانون تشكيليون وعشرات الرياضيين اللامعين، وبحدود ربع مليون شيعي يمثلون كفاءات علمية وثقافية وعسكرية واساتذة جامعات ورجال اعمال وبيوتات معروفة غادروا العراق تخلصاً من المضايقات والضغوط والترهيب ورسائل الموت.

إن مبادئ حزب الدعوة والمجلس الاعلى ومنظمة العمل الشيعي والدكاكين والميليشيات الطائفية تجاهر بان كل شيعي لا يعمل في صفوفها ولا يتعاون معها شيعي مزيف او قلق في شيعيته، وتنظر الى الشيعة الوطنيين والقوميين واليساريين والعلمانيين كخصوم لها.. يجب تصفيتهم، وتذكروا كيف رضخ الحزب الشيوعي لارادة هذه التنظيمات ورشح رئيسه حميد مجيد الموسى ضمن الخانة الشيعية في مجلس الحكم الانتقالي، وعين عضو مكتبه السياسي مفيد الجزائري وزيراً للثقافة ضمن الحصة الشيعية، في حكومة ذلك المجلس المنقرض، في انقلاب صارخ على مبادئة الماركسية.

ولاحظوا كيف تعاملت القيادات والميليشيات الشيعية الطائفية مع عشيرة (الحواتم) المعروفة برفضها التعاون مع المجلس الاعلى وحزب الدعوة وميليشيات بدر والمهدي، يوم الاثنين الماضي، وكيف خاضت حرباً مستعينة بالطائرات الامريكية المقاتلة والمروحية ضد افراد هذه العشيرة العربية الاصيلة، وقتلت منهم 263 انساناً واصابت 210 اشخاص بجروح بالغة واسرت 600 من الرجال والنساء والاطفال حسب البلاغات الحكومية، وكل ذنب هذه العشيرة التي نكبت بشيوخها ونسائها وشبابها واطفالها وهدمت بيوتها وخربت مزارعها وبساتينها، انها خارج اطار الاحزاب والمرجعيات الشيعية الصفوية، ومتمسكة بهويتها العربية وترفض الانصياع للامريكان والايرانيين المتسلطين على مقادير العراق.

وحتى اذا افترضنا ان قائد فرقة (جند السماء) احمد الحسن البصري او اليماني الذي تحدثت عنه البيانات العسكرية والرسمية قد اتخذ مقراً له مع جماعته في بساتين قرية (الزركة) بالقرب من مضارب عشيرة الحواتم، فهل من المنطق الانساني ان يباد هذا العدد الكبير من ابناء العشيرة في غضون عشر ساعات، علماً بان الاحزاب والمرجعيات والهيئات الشيعية المتسلطة على العراق منذ احتلاله تؤمن بالمهدي الذي يدعي احمد الحسن انه وكيل عنه، وتؤمن ايضاً بان مهديهم عمل له اربعة وكلاء سموا بالنواب او السفراء طيلة سبعين عاماً هي مدة الغيبة الصغرى كما يسمونها، وهؤلاء النواب هم كما جاء في كتبهم، عثمان بن سعيد العمري (ت262هجري) ومحمد بن عثمان العمري (ت305 هجري) والحسين بن روح (ت 320 هجري) وعلي بن محمد السمري او السيمري (ت329 هجري)، ومعروف عن المرشد الاعلى الايراني الحالي علي خامنئي انه يتسمى بنائب الامام المهدي كما كان حال سلفه آية الله الخميني، وهذا يعني ان الشيعي الاثني عشري او الامامي يعتقد بوجود وكلاء ونواب للمهدي، فلماذا لا يعترف بنيابة او وكالة احمد الحسن الذي تقول المعلومات عنه انه من مواليد مدينة الديوانية، هجر دراسته في كلية الهندسة في البصرة وتحول الى رجل دين وتعلم في الحوزة الشيعية بادارة المرحوم محمد صادق الصدر والد مقتدى، وافترق عنه عام 1999 قبل وفاة الاخير باسابيع قليلة، وانشأ له جماعة تؤمن بافكاره نشطت خلال السنوات التي اعقبت الاحتلال واصبح تعداد افرادها خمسة الاف مريد ومنتسب، حسب تصريحات احد اعضاء المجموعة الملا عبدالامام جبار امام مسجد الجماعة في البصرة، الذي نقلت عنه وسائل اعلام محلية وعربية واجنبية، عقب مجزرة (الزركة) ان شيخه البصري او اليماني التقي المهدي (عجل الله فرجه) وان الاخير زكاه وأبلغه انه حفيده!

وسواء كانت حكاية احمد الحسن البصري صحيحة ام انها من نسج خياله، الا ان الثقافة السائدة في عدد من المناطق والمحافظات الشيعية تساعد على نشوء وانتشار هذه الدعوات لأسباب كثيرة، منها ان التنظيمات والمرجعيات الشيعية المسيطرة على الشارع الشيعي منغلقة فكرياً وفقهياً، ومؤمنة بالغيبيات والخرافات والأساطير، وتحتكر القرار الشيعي بيدها فقط، ولا تسمح بظهور منافسين يعارضون أوامرها وتوجيهاتها، او يشاركونها في تلقي زكاة (الخمس) المفروضة على الشيعة الاثني عشرية.

كما ان من مصلحة هذه التنظيمات والمرجعيات ان يبقى المجتمع الشيعي اسير طروحاتها المتخلفة، وأن تسود ثقافة اللطم والنواح على احداث تأريخية قديمة حصلت قبل الف واربعمائة سنة كمقتل الامام الحسين في كربلاء، لذلك لا تأخذكم الدهشة، وخصوصاً القراء العرب، إذا علمتم ان الاسواق والمكتبات والحسينيات والمراقد في النجف وكربلاء والكاظمية ومحافظات الجنوب والفرات الاوسط واحياء الثورة واور والحبيبية وغيرها من المناطق ذات الكثافة الشيعية في بغداد، تعج منذ عامين بكتب وكراريس انيقة وملونة تعرف مضامينها من عناوينها، مثل كتاب (كيف تتعلم اللطم والتطبير وضرب الزنجيل في ساعة) على غرار كتاب (سيدتي.. كيف تتعلمين الطبخ في يوم واحد) وفي هذا الكتاب الكراس تعليمات مع رسوم وسائل ايضاح، تبين الطرق التي تجلب (الثواب) ورضا الامام الحسين في ضرب الصدور وتطبير الرؤوس بالقامات، وضرب الظهور بالزانجيل (جمع زنجيل) وهي حلقات حديدية مرتبطة بعضها ببعض تشكل سلسلة لها مقبض خشبي. وإذا كان البغداديون يتندرون على محل لبيع الاجبان والالبان الكردية كان قائماً في حي باب المعظم مقابل المبنى القديم لوزارة الدفاع ايام الستينات والسبعينات، لان صاحب المحل كان يرفع لافتة في بداية كل صيف مكتوب فيها (لبن اربيل للسنة التاسعة او العاشرة) حسب السنة، فان المثقفين العراقيين في النجف وكربلاء والبصرة وبعض المحافظات الجنوبية باتوا في اكتئاب لان كثرة من محلات العطارة والبقالة رفعت لافتات من قماش أسود مكتوب عليها بخط ابيض عبارة (للسنة الثالثة على التوالي وصلتنا افخم القامات وافخر الزنجيل من ايران.. فاغتنموا الفرصة قبل فوات الاوان).

ومبروك لامريكا بوش صاحبة أفلام هوليود وصالات لاس فيغاس وناطحات السحاب وحارسة الديمقراطية والتعددية وحقوق الانسان في العالم وام الحداثة والعصرنة كما يدعي قادتها ورجالاتها على التجربة الرائدة والرائعة التي يسعون الى تسويقها وترسيخها في عراق الحضارات والثقافات والابداعات لتكون قدوة ونموذجاً لدول المنطقة، مستعينة بالآفاقين والمعتوهين والدجالين واللطامين وخريجي زوايا العتمة وحوزات التخلف.

* كاتب وصحافي عراقي مقيم في لندن

في فضيحة رئاسة القمة الافريقية

د. عبدالوهاب الافندي

(1) عندما أراد الفيلسوف البريطاني توماس هوبز التدليل على صحة نظريته بأن «مجتمع الطبيعة» أو فضاء ما قبل الدولة هو غابة يأكل فيها القوي الضعيف، أشار إلى الساحة الدولية في عهده، داعياً قراءه للتأمل في الوضع الدولي الذي تحسم فيه النزاعات بقوة السلاح أو بالتهديد.

(2) من المفترض أن عالم ما بعد الأمم المتحدة سعى إلى إنهاء هذا الوضع بخلق ما سمي مجازاً «القانون الدولي»، أملاً في تجنب النزاعات المدمرة التي كادت تعصف بالبشرية. ولكن بما أن العالم لم يصبح دولة واحدة لها حكومة، فإن إطلاق صفة القانون على القواعد التي تنظم العلاقات الدولية هو من قبيل الأماني. أما الواقع فإن العالم ما يزال غابة تسود فيها الوحوش الأشرس.

(3) كثير من الأنظمة الدكتاتورية أيضاً تحول الساحة الداخلية إلى غابة وساحة قتال. وفي الحالين فإن الفرق فرق درجة لا فرق نوع. فالساحة الدولية ليست ساحة حرب مطلقة، كما أن الساحة الداخلية ليست ساحة حرب مطلقة. فهناك دول يتعرض مواطنوها للمحاربة من دولتهم لمجرد الخلاف في الرأي، بينما هذا لا تشن الحروب الدولية لمجرد الخلاف في الرأي.

(4) في الحالة السودانية فإن حكومتنا الرشيدة على مذهب هوبز في أن السياسة غابة صراع يأكل فيها القوي الضعيف، سوى أن هوبز كان يعتقد أن إقامة الدولة كفيلة بإنهاء حالة الحرب هذه. أما القائمون على أمر الإنقاذ فإنهم يرون إقامة الدولة هي بداية الحرب لا نهايتها، ويتبعون نهج المعز في أن السيف والذهب هما الفيصل في حسم الأمور، لا الحوار والقيم. وقد كنا نجادل أهل هذا المذهب بأنه لو كان هذا المبدأ صحيحاً فإن عليهم أن يقروا بالهزيمة، لأن خصومهم أغنى بالذهب والسلاح وأكثر نفيراً.

(5) عندما اصطدمت الحكومة السودانية بهذه الحقيقة المرة في مواجهتها في القمة الإفريقية التي خسرت معركتها للمرة الثانية أخذت تصيح «فاول» وتبرر هزيمتها بالتدخلات والضغوط الاجنبية. وإذا كانت الحكومة قد ذهبت إلى أديس أبابا وهي تعتقد أن زعماء افريقيا ملائكة أطهار (هذا على الرغم من أن كبار مسؤوليها كانوا يتبجحون علناً بأنهم رشوا هذا الزعيم أو ذاك ويسخرون من المبالغ الزهيدة التي يرضون بها) فإن هذه سذاجة ما بعدها سذاجة. وإن كانت تعلم الحقيقة فإن دخول تلك المعركة الخاسرة كانت حماقة كبرى.

(6) وعلى كل فإن موقف الحكومة السودانية ليس موقفاً ملائكياً، ليس فقط لأنها تطبق ما تطبقه أمريكا والدول الأخرى التي تتهمها بالتدخل على مواطنيها في السودان، بل لأن الخلاف بين الحكوم وبقية افريقيا خلاف أخلاقي. فالحكومة متهمة باضطهاد طائفة من شعبها تجمعهم مع زعماء القارة هويتهم الافريقية، وهناك إجماع دولي وإفريقي على أن الحكومة هي الظالمة، وهي التي ترفض الحل الافريقي المفترض. فلا يمكن أن تصور على أنك عدو الأفارقة ثم تتصدى لزعامتهم.

(7) الحكومة تقول إنها هي المظلومة وأن كل ما يقال عن أزمة دارفور هو تهويل إعلامي وكيد أعداء. وإذا كان هذا صحيحاً فإنها تكون أول حكومة في التاريخ فشلت في إقناع العالم كله بالحقيقة، وهو فشل أفدح وأقل عذراً مما لوكانت الحكومة بريئة كما تزعم. وهذا لم يحدث حتى في حالة نظام صدام حسين، الذي تظاهر الملايين في العالم رافضين للحرب ضده رغم الدعاية الغربية الواسعة. أما فيما يتعلق بدارفور، فلا يكاد يوجد صوت واحد يؤيد موقف الحكومة، فضلاً عن متظاهر يهتف بذلك.

(8) رب ضارة نافعة، ولا شك في أن الفشل الذريع والمهين الذي واجهته محاولة الحكومة للحصول على مقعد رئاسة القمة الإفريقية يجب أن يكون سبب صحوة (وإن كانت متأخرة) لمن سوقوا لأنفسهم أوهام القوة في غير مقامها. ويجب كذلك أن يكون تنبيهاً لتغيير أسلوب العمل الداخلي الذي يشبه ما تشكون منه الحكومة من «هيمنة» خارجية. لقد كان السعي إلى رئاسة القمة خطأً في الأساس في الوقت الذي يجد فيه السودان نفسه في موضع محاكمة أو، على أحسن تقدير، معالجة من الاتحاد الافريقي.

(9) هناك دروس كثيرة بليغة من فضيحة القمة، أولها إدراك أن السودان بدأ يستعيد مكانته في القارة والعالم ليس لأن حكومته أصبحت تقدم الخدمات إياها للمخابرات الأمريكية، أو لأن بعض مسؤوليه أخذوا ينفقون أمواله في غير موضعها، بل لأن البلاد تصالحت مع نفسها جزئياً بعد اتفاقية السلام. وبنفس القدر، فإن الانحدار السريع سببه فشل الحكومة المساة حكومة الوحدة الوطنية في استيعاب معظم القوى السياسية الفاعلة في البلاد فضلاً عن كارثة دارفور التي حولت الحكومة إلى عدو لقطاع من شعبها. وعليه فإن الباب إلى تحسين صورة السودان ومكانته في الخارج يمر عبر إصلاح تعامل السودانيين مع بعضهم البعض، والبعد عن المناورات الانصرافية التي طائل من ورائها.

القدس العربي

يومية سياسية مستقلة

تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم

الاشتراكات:

الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو